الرقابة مناخ

بهيجة حسين

حملتُ ميراثَ مَنْ دَفَعوا أعمارَهم ثمنًا لحقّ الإنسان في التعبير والاعتقاد والتفكير. حملتُ ذلك الميراث كالأيقونة أو التعويذة التي نُقِشَتْ عليها مقولةُ الحريّة. وبكلّ قوةِ ذلك الميراث الذي تشبّع به وجداني كنتُ أجلس لأكتب. وأقول، ربما على غيرِ ما حدث مع الآخرين، إنّ أشباح الرقباء لم تكن تَخْرج من جلدي لتَرْقص حولي مُنْذِرةً بالشرّ وأنا أكتب. فقد كَتَبتُ ونَشَرتُ مجموعةَ قصص قصيرة وأربعَ روايات، ولم أفكّر لحظةً أثناء كتابة أعمالي أنّني امرأةٌ شرقيّةٌ وعربيّةٌ ومسلمةٌ، بالرغم من أنّني كلُّ أولئك بالضرورة (فلستُ نبتًا شيطانيّاً منفصلاً عن طبقات الأرض وعمق التاريخ الذي صنعني وأنتمي إليه).

لم أتعرّض للرقابة!

ولا بدّ أن أَذْكر بدايةً أنّني لم أتعرَّض لرقابة الدولة وأجهزتها. ذلك لأنّني نشرتُ رواياتي الأربعَ في دار نشر خاصة، وعلى نفقتي الشخصيّة، وبذلك تجنَّبتُ بفلوسي الصدامَ مع الدولة. كانت طباعةُ أعمالي في دُور نشرٍ خاصة، وضعفُ التوزيع، من أسباب عدم انتباه الرقابة إلى ما أكتبه. وعلى سبيل المثال فقد امتدح الدكتور علي الراعي روايتي الأولى **رائحة اللحظات** التي صدرتْ عام ١٩٨٩، لكنْ بعد خمس سنوات من نشرها. وهذا «ثمن،» أيّاً كان صغيرًا، نَدْفعه لتفادي الرقابة بكلّ مستوياتها، بدءًا من ضغط العادات والأُسرة والزوج والموروث الاجتماعيّ والبيئة التي نشأتْ فيها الكاتبةُ، أكانت من صعيد مصر أَمْ من مدنها الكبرى. وهناك أيضًا المستوى الدينيُّ المزدوج من الرقابة، وأقصد: سلطةَ رجال الدين من الخارج، وسلطةَ الدين داخلنا المختلطةَ بطبقات أرواحنا. وهناك في النهاية الرقابةُ السياسيّةُ بكلّ ثقلها.

وبالرُّغم من كل أشكال الرقابة القائمة، فإنّني أقول إنّ أحدًا لم يُمْسك بالقلم سواي، ولم يَضَعْ أحدٌ حجرًا على صدري ليَمْنع أشواقَ الكتابة من التفتح، ولم تكن بلدتي ولا أهلي رقيبًا في داخلي، ولم أجد أشباحَ جيراني تطاردني. لقد كتبتُ ما أردتُ، ونشرتُ ما اعتقدتُ أنّه قلبي وعقلي.

لكنْ...

لكنّ ما ارتطمتُ به كان شيئًا آخر: كان بشرًا من لحم ودم، لهم أسماء محددةٌ وهيئةٌ محدَّدةٌ وأفكارٌ محدَّدةٌ، نَصَّبوا من أنفسهم رقباءَ عليَّ يحاسبونني. وعلى سبيل المثال فقد اتُّهِمتُ مرتيْن بـ «الردّة»؛ ويا لها من تهمة! المرة الأولى جاءت من أستاذ جامعيّ اتّهمني في ندوة بمعاداة الإسلام وبالردّة، واستَنْكَرَ أن تتضمَّن روايتي علاقةَ حبٍّ بين مسلمة ومسيحيّ، وهَتَفَ بالحرف الواحد: «كيف لمسلمة أن تكون خليلةً لمسيحي؟!» وفي المرة الثانية وجدتُ نفسي مرتدّةً عن الماركسيّة، وذلك حين وصفتني ناقدةٌ محسوبةٌ على الماركسيّة بـ «اليسارية

المرتدّة،» واستنكرتْ أن أتناول شخصيَّةً يساريّةً على نحو سلبيّ ! وفي هذا الصدد أَذْكر أنّ أحد النقّاد كَتَبَ تعليقًا على روايتي **أجنحة المكان** قائلاً إنّ هناك ثلاثةَ تابوهات معروفة: الجنس والدين والسياسة، ولكنّ بهيجة حسين تحطِّم محظورًا رابعًا مقدَّسًا هو صورة اليساريّ الذي جرى العُرْفُ الأدبيُّ على تقديمه في شكل قدّيسٍ بلا أخطاء ولا ضعف.

ناقدة أخرى كبيرة احتجَّت في إحدى الصحف لأنّني تناولتُ مذابحَ الأرمن في روايتي **البيت**. وتساءلتْ بسخط : «لماذا الأرمن.. بالذات؟» حقّاً.. لماذا الأرمن بالذات، وكيف لي أن أفسِّر لها كيف يتخيّر الكاتبُ موضوعَه هكذا من حنايا الروح؟

رقابة الأصدقاء والمعارف

عندما بدأتُ أكتب رواية **رائحة اللحظات** كنتُ أكتب بتدفُّق ودون توقف. ربما كان رقيبٌ ما يختفي في مكانٍ ما، لكنّي لم أَلحظْه. ولعلّي واصلتُ الكتابة لأنّ كلّ ما سَطَّرتُه كان منسجمًا مع روحي بقوّة وتعبيرًا عنها. بدأتُ أكتبها وأنا متزوجة، ولكنّي لم أكن لأنتهي منها لولا الطلاق. ففي هذه الرواية تلتقي الراويةُ البطلة بشيوعيّ عراقيّ وتقع في غرامه، وتصل بعلاقتها به إلى آخر مدى، وتَطْلب من زوجها الانفصالَ. ولو كنتُ مازالت زوجةً لقام زوجي بإسقاط كلِّ أحداث الرواية على حياتي الشخصيّة. وقد أكّد أحدُ النقاد ذاتَ مرةٍ أنّ أغلب المبدعات أنهَيْن أفضلَ أعمالهنّ الروائيّة في ظلّ الطلاق، وقال إنّ لديه إحصائيّةً بذلك!

وعندما صدرتْ **رائحةُ اللحظات** انتقدتني الكثيراتُ بقولهنّ : «كيف للزوجة أن تَخُون زوجَها؟ ثم كيف تَخُونه في غابة؟!» وكأنّ المشكلة أنّ الغابة مكانٌ غيرُ ملائم لأماكن الخيانة المقبولة اجتماعيّاً! كما طَلبتْ منّي شخصيّةٌ تقدُّميّةٌ معروفةٌ من بلدتي ألاّ أرسل بأيّة نسخة من هذه الرواية إلى بلدتنا لكي نتجنَّب الأقاويل، وكان يُخشى أن يقال في بلدتنا: «ها هم الكتّاب التقدُّميُّون الذين تنتمين إليهم.» وبالفعل حرصتُ على ألا تتسرَّب نسخةٌ من الرواية إلى بلدتنا. لكنّ زوجة عمي استطاعت أن تحصل على نسخة، وقالت لي إنَّها صُدِمتْ من المشاهد الجنسيّة. واختَتَمتْ حديثَها بقولها: «هذا لا يصحّ. نحن، مهما كان الأمر، فلاّحون!»

وإذا كان البعضُ قد توقّف في رواية **مرايا الروح** (١٩٩٦) عند مشاهد أو عبارات معيّنة مثل «بَشَّرتُ بأنوثتي وبوهج حلمتي البكْر تحت قمصاني الحريريّة،» فإنّ آخرين توقّفوا بغيرة ذكوريّة قوميّة في رواية **رائحة اللحظات** من عشق البطلة الراوية لشخصٍ عراقيّ. وكان منطقُهم في ذلك: «كيف؟ وأبناءُ بلدِنا.. مَالْهُمْ؟!» أَيُمْكن أن يكون ذلك مَنْطقًا يَحْكم عملاً روائيّاً؟ أَمْ أنّه يقلِّص من مساحات الخيال؟

الملاحَظ أنّ القارئ العادي لا يقوم بإسقاط أحداث الروايات على الكاتبات، بل إنّ مَنْ يفعل ذلك هم الأصدقاء والمقرَّبون الذين يَعْرفون عن حياتك الكثيرَ. ويبدو أنّ هناك شكلاً اجتماعيّاً لرقابة بلا قوانين، هي رقابةُ الأصدقاء والمعارف. فهل ينبغي أن أُلقي جانبًا بتضحياتِ كلِّ مَنْ دفعوا حياتَهم ثمنًا لحقّنا في حريّة التعبير؟ وهل أنا مطالَبةٌ بتسكين أشباح الرقباء تحت جلدي لتَضْبطني أثناء الكتابة؟ أم أنّ هذه الأشباح تَسْكن جلودَنا دون أن ندري؟!

يبدو لي أنّ الرقابة ليست فقط تلك القوانينَ التي تحظِّر الكتبَ، بل هي مناخ اجتماعيّ وثقافيّ. ومع ذلك فإنّ عليَّ أن أتمسَّك بأنّ القارئ هو الطرف الوحيد صاحبُ الحقِّ في الحُكْم على العمل: القارئ فقط، لا أيّة جهة أخرى أو هيئة، سواء أكانت من المثقفين أَمْ من السلطة.

بهيجة حسين

صحفيّة وروائيّة معروفة. صدرتْ لها مجموعةُ قصص، وأربعُ روايات: **رائحة اللحظات** (١٩٨٩)، و**أجنحة المكان** (١٩٩٥)، و**مرايا الروح** (١٩٩٦)، و**البيت** (١٩٩٩).